الحضارة الاسلامية العربية فى غرب افريقيا

سماتهـا وعوامـل انتشـارها

للدكتور / شوقى عطا الله الجمل اسـتاذ ورئيس قسم التـاريخ
بمعهد البحوثوالدراسات الافريقية .

ARABIC ISLAMIC CIVILIZATION

IN

WEST AFRICA

ITS CHARACTERISTICS AND THE ELEMENTS OF ITS SPREAD

BY

PROF. Dr. S. A. ELGAMAL.

Professor of History at the Institute.

Arabic Islamic civilization spread in West Africa. This civilisation has contributed effectively in the economic, political and social development of the region.

Among the inhabitants of this region, there were many scholars and Fakihs who left a great religious and scientific heritage. There were also cultural centres that could attract many scholars of the Islamic world.

Due to the spread of Islam in these parts, Arabic spread as the language of commercial dealings, writing and speech for it is the language of the Koran.

The Arabic Islamic movement in West Africa was characterized by the appearance of an elegant class of reformers who fought the bad customs and traditions that were practised in the daily life, besides the purification of Islam from all the traditions that contradict with the doctrines of the right religion. Among the factors that contributed in the spread of Islam in West Africa we have these points :

1. Commerce which has played an important part in the spreading of Islam and its Arabic culture in West Africa. As Arnold referred that Islam and commerce are intermingled.

2. Pilgrimage was and is still one of the most important elements that aided moslems to mingle and exchange intellectual and cultural views.

3. Sofi Tariquahs that spread there as Quadriah and Tiganiah. The followers of such tariquahs have played an important role in the spreading of Islam and Arabic culture in this region.

4. Scholars and religious men who came to West Africa from various islamic nations to teach in the schools and mosques of Timbucto, Jenne and Mali. These men have played a vital role in the spreading of Islam in these parts.

5. The Reform movements that appeared in these parts, as we have previously mentioned, have helped people to the right path of the religion.

6. The psychological factors : The Africans in West Africa have found in Islam-with its simplicity and tolerence and its adaptability to every age-what can solve many of their problems.

7. **The role of Maghrib :**

The Maghrib countries, owing to its site, played an important role in the spreading of Islam and Arabic cuture in West Africa, where scholars and Fakihs went to West Africa, besides the role of the Veiled and Almoravid in the spreading of Islam and its culture in West Africa.

Islam and the Arabic culture could create a special forum that affected the customs, arts, culture and the economic and social system. This paper tries to deal with these points.

شغلت فى الفترة الاخيرة ببعض القراءات عن التراث الثقافى الذى تركه لنا علماء غرب افريقيا ــ وقد خــرجت من هذه القراءات بعــدة انطباعات منها :

١ ــ ان هذه المنطقة الشاسعة من القارة الافريقية تأثرت بالحضارة الاسلامية العربية التى وجدت طريقها الى غرب افريقيا فى وقت مبكر ، منذ أن مد العرب نفوذهم الى شمال القارة فأخذت حضــارتهم تنتشر وتتسرب الى المناطق الشاسعة الواقعة الى الجنوب • وكان للمغرب دور فعال وريادى فى نشر الاسلام والحضارة العربية فى هذه البلاد •

٢ ــ ساهمت هذه الحضارة العربية الاسلامية مساهمة فعالة فى التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى للمنطقة • فالاسلام لم يكن دينا فحسب بل ثقافة وتنظيما اجتماعيا واقتصاديا ــ ولم يهدف لهــدم المجتمع القديم بــكل مقوماته بل تطويعه للدين الجــديد وما يأمر به ، وما ينهى عنه •

٣ ــ برز فى هذه المنطقة الافريقية علماء وفقهاء تركوا لنا ثروة علمية وفقهية فى مختلف مجالات العلوم الاسلامية والانسانية ، ما زال أغلبها حبيس دور الوثائق ، غير ما نقل من هــذه الثروة للمكتبات الاوربية ، وما فقد منها • ولعل القرنين الرابع ، والخامس الهجريين يمثلان القمة فى الثقافة العربية فى هذه البلاد ، فقد برز فيهما علماء من البربر ساهموا بحظ وافر فى النهضة العلمية بها •

٤ ــ هذه الثروة العلمية جزء من تراثنا الاسلامى العربى يجدر بنا أن نبذل جهودا مضاعفة لالقاء الاضواء عليها وابرازها •

٥ ــ قامت فى غرب افريقيا مراكز حضارية استقطبت الكثرين من علماء العالم الاسلامى ، وطلاب العلم والمعرفة ، ومازال دورها الحضارى الحقيقى لم يكشف النقاب عنه كاملا •

٦ ــ انتشار الاسلام فى هذه الجهات ، كان معناه ايضا انتشــار اللغة العربية كلغة للحديث والمعاملات التجارية والكتابة ــ خاصة بعد أن اجمع اغلب ائمة المسلمين بعدم جواز ترجمة القرآن الكريم ، وعدم جواز قراءته بغير العربية ، ووجوب الصلاة بها ، فكان لابد لمن يريد معرفة اسرار الدين ان يتعلم اللغة العربية ويتقنها •

٧ ــ ارتبط ازدهار الثقافة الاسلامية العربية فى غــرب افريقيا بانتشار الطرق الصوفية ــ خاصة التيجانية والقادرية ، وما انبثق منهما من طرق فرعية اخرى • وقد لعبت هذه الطرق واتباعها دورا كبيرا فى نشر الثقافة الاسلامية فى هذه الجهات ، وفى مقاومة الاستعمار الاوربى

الذى اندفع الى المنطقة طامعا فى ثرواتها ومتسلحا بما امدته به النهضة الاوربية من اسلحة مكنته من اختراق المناطق المجهولة •

٨ ــ تميزت الحركة الاسلامية العربية فى غرب افريقيا أيضا بظهور صفة واعية من المصلحين الذين سعوا الى محاربة البدع والعادات السيئة التى شاعت فى حياة الناس وتطهير الاسلام مما تسرب اليه من هذه البدع المخالفة لتعاليم الدين الصحيح ، للملاءمة بين الشريعة الاسـلامية وما تقضى به ، وبين الافكار الحديثة ــ هذا بالاضافة الى اعلان الجهاد للعمل على نشر الاسلام على نطاق اوسع ، والدفاع عنه فى وجه التيارات الوثنية والاستعمارية ، ولم يقف نشاط هذه الحركة على غرب افريقيا ، بل امتدت تطلعاتها الى العالم الاسـلامى كله للدعوة للسير وفق تعاليم الدين السليمة •

وفى هذا البحث محاولة لالقاء بعض الاضواء على الظـروف التى انتشرت فيها الحضارة الاسلامية العربية فى افريقيا وعوامل انتشارها والآثار التى ترتبت على انتشار الاسلام واللغة العربية فى هذه البـلاد كما اننى أرجو أن اقدم فى بحث آخر بعض الشخصيات من علماء غرب افريقيا وانتاجها الثقافى والعلمى •

العوامل التى ساهمت فى انتشار الاسلام والثقافة العربية فى غـرب افريقـــيا :

١ ــ دور المغـــرب :

كما تركت مصر وثقافتها الاسلامية اثرها الواضح فى نشر الاسـلام والثقافة العربية فى سودان وادى النيل وشرق افريقيه ــ كذلك كـان اثر بلاد المغرب واضحا فى تاريخ الاسلام فى غرب افريقيا ــ هذا التاريخ الذى لا يمكن فهمه الا فى ضوء تاريخ المغرب واحداثه (١) •

---

(١) حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقية (القاهرة ١٩٦٣) ص ٢١٠ •

فمنذ اللحظة التى دخل فيها الاسلام بلاد المغرب بدأ يتسرب الى غرب افريقيا ، والمعروف ان عقبة بن نافع الفهرى أوغل بقواته حتى ساحل المحيط الاطلنطى ، وسار موسى بن نصير فى نفس الطريق فانفتح الباب للاســـلام صوب الغرب وجنوبا الى قلب القارة التى اطلق عليها الاوربيون فى وقت من الاوقات تعبير (القاره السوداء) ، فكان هذا أول اتصال بين الاسلام القادم من المغرب وبين اقاليم غرب افريقيا ، وتتابعت بعد ذلك هجرات البربر الذين اندفعوا فى موجات متعاقبة نحو الجنوب متأثرين بالأحداث السياسية التى تعرضت لها بلاد المغرب • ولعل من ابرز القبائل التى لعبت دورا حاسما فى نشر الاسلام فى هذه الجهات قبائل (الملثمين) و (الطوارق) بالذات فقد كان لها نشاط واضح فى منطقة السنغال ، والنيجر والمناطق المحيطية(٢) •

ولم تكن الاحداث السياسية فى المغرب هى العامل الوحيد فى هجرة قبائل البربر صوب الجنوب ، فهناك عوامل اخرى بينها مثلا هجـــرات القبائل العربية خاصة (بنى سليم) و (الهلاليين) وتقدمها تجاه الصحراء بحثا عن مناطق تشبه الى حد ما فى ظروفها وانماط الحياة فيها تلك التى تعودت عليها فى بيئتها الأولى فى الجـــزيرة العربية ــ فدفعت هـــذه القبائل العربية امامها قبائل بربرية وزنجية ، وأدى هذا ــ كما يذكر توماس ارنولد ــ الى تغيير اساسى فى توزيع السكان ، وتجمعهـــم فى مناطق معينة صالحة للاقامة فى الواحات أو على ضفاف الانهار • وساعد ذلك بدوره على نشر الاسلام فى المناطق التى نزحت اليها هذه القبائل المتراجعـــة (٣) •

وفيما يتعلق بدور قبائل الملثمين فى غرب افريقيا لابد من الاشارة الى الدور الذى قام به (عبد الله بن ياسين) من رباطه فى مصب السنغال •

---

(٢) Dubois : F. 1 : Islam Noir P. 28.

وكذلك

Palmer : Islam in Western Sudan and on the west Coast of Africa P.9

(٣) توماس ، ارنولد : الدعوه الى الاسلام (مترجـــم ــ القاهـــرة ١٩٥٧) ص ٣٩١ وما بعدها .

فقد استطاع ان يوحد قبائل الملثمين ، وأن يبعث فيهم روح الجهـاد فى سبيل نشر الاسلام،فقامت دولةالمرابطين الذين استطاعوا أن يكونوا جبهة أسلامية قوية تمتد من غرب افريقية الى المغرب ثم الاندلس •

وقد ترك المرابطون أثارا عميقة فى ثقافة وحضارة غرب افريقيـة ، ومن أعظم الآثار التى تمت فى عهدهم تأسيس مدينة تنبكتو(٤) التى أصبحت من أعظم الحواضر الثقافية الاسـلامية فى غـرب أفريقيـا • ويتحدث السعدى عن الظروف التى أدت الى نشأة هذه المدينة وعمرانها حتى غدت حاضرة للثقافة العربية فى غرب افريقيا ، فيقول « نشـأت تنبكت فى أواخر القرن الخامس من الهجرة ــ وأخذ النـاس يسكنون فيها ، وتزداد بقدرة الله تعالى وارادته فى العمارة ، ويأتيها الناس من كل جهة ومكان حتى سارت سوقا للتجارة • وسـكن فيها الأخيـار من العلماء والصالحين وذوى الأموال من كل قبيلة ، ومن كل بلاد ــ من أهل مصر ، ودجل ، وفزن ، وغدامس ، وتوات ، ودرعة ، وتافللت ، وفاس ، وسوس ، الى غير ذلك ••• انتقل الجميع الى تنبكت قليلا قليلا ••• مع جميع قبائل الصنهاجة بأجناسها فكانتعمارة تنبكت•• فأول الحالكانت مساكن الناس من زريبات الأشواك ••• ثم تحولوا الى بناء الحوائط ، أسوارا قصارا جدا بحيث من يقف فى خارجها يرى ما فى داخلها ، ثم بنوا مسجد الجامع على حسب الامكان ، ثم مسجد سـنكرى كذلك ••

---

(٤) اختلفت المراجع فى كتابتها فبعضها يكتبها (طومبوكتو) والبعض (تنبكت) ، والسعدى الذى يؤيد الرأى الأخير يعطى تعليلا لهذه الصيغة فيذكر أن تنبكت بلغتهم معناها (العجوز) اى المدينـة القديمة أو العريقـة

انظر : السعدى ، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران السعدى : تاريخ السودان (طبعة هوداس ــ ١٨٩٨) ص ٢٠ .

لكن لم يكتمل بناء المسجد الا فى أواسط القرن العاشر فى مدة اسكيا داوود ابن الأمير اسكيا الحاج محمد » (٥) •

والحقيقة أن أوضاع المغرب كانت تهيؤه للزعامة السياسية والثقافية والدينية فى هذه المنطقة من افريقيا • فهو فى ملتقى عدة تيارات حضارية، فهو يتقبل حضارة المشرق الاسلامى كما يتلقى مؤثرات البحر المتوسط ، والمؤثرات الأوربية بالاضافة الى المؤثرات الافريقية وتبلورت كلها فى النهضة التى بلغت ذروتها فى عهد أمير المؤمنين يعقوب المنصـــور الذى قرب اليه العلماء والأدباء ونشطت فى عهده حركة التأليف ، وأحاط نفسه بمجموعة من الفلاسفة كان يأنس اليهم مثل الطبيب الفيلسوف (أبو بكر بن زهر) والفيلسوف (أبو بكر الطفيل) والفقيه (أبو الوليد ابن رشد الحفيد) (أبو العباس أحمد الجرارى)(٦) •

وحين أصبحت مراكش عاصمة لامبراطورية شاسعة تضم الأندلس، والمغرب الأوسط والأقصى وافريقية ــ أصبح المغرب بحق قلب الحياة الاسلامية الخافق والأمين على التراث العربى الاسلامى بعد ســقوط (غرناطة) ، ودافع الأشراف السعديون وخلفاؤهم الأشراف العلويون عن هذا التراث ، وجنبوا بلادهم الخطر التركى الذى داهم العـــالم العربى كله مشرقه ومغربه ••• وهكذا ظل المغرب مركز الثقافة الاسلامية وحصنها المنيع بغرب افريقيا •

وبانتشار الاسلام فى غرب افريقيا قامت ــ منذ القرن الثانى عشر

---

(٥) السعدى : المرجع السابق ص ٢٠ ــ ٢٢ .

ــ وكذلك

Dubois, F.: Toumboctou la Mysterieuse (Paris 1899) p. 152.

ملاحظة : (ديبوا) رحالة فرنسى زار تنبكتو فى القرن التاسع عشر ، وكانت قد فقدت الكثير من عظمتها فسجل ذلك باسلوب مؤثر ، وذكر ان مكتباتها الشهيرة أصبحت خاوية ، ومدارسها تضاءلت ــ لكنها تعيش على ذكريات مجدها وتراثها التليد .

(٦) المراكشى ، عبد الواحد : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب (القاهرة ١٣٦٨هـ ــ ١٩٤٩م) ص ١١٠ .

فصاعدا ــ ممالك اسلامية كبرى لها مكانتها وحضارتها فى غانا ، ومالى وسنغى ، وبرنو ، وكانم(٧) •

وحرص حكام هذه الممالك على توثيق صلاتهم بالمغــرب باعتبــاره الدولة الاسلامية الأب ، وحين زار الرحالة العربى ابن بطوطة هذه الجهات أشار الى ذلك ، والى أن شعوب هذه البلاد على المذهب المالكى الذى أخذوه مع ما أخذوا من تعاليم الاسلام ومبادئه من المغرب (٨) •

وقد تأثر حكام هذه البلاد السودانية (٩) بما شاهدوه أو سمعوا عنه فى البلاد الاسلامية عامة ، والمغرب بصفة خاصة ، وحــاولوا أن ينقلوا

---

(٧) ملاحظة : اتسعت مملكة غانا واصبحت امبراطوريــة عظيمة فى القــرن الحادى عشر ، وقد أشار الى ذلك ابن خلدون وغيره من المؤرخين العــــــرب .

كما بلغت مملكة مالى درجة كبيرة من القوة والاتساع فى عهد ملكها منسى موسى (١٣٠٧ ــ ١٣٧٢) . وبرزت مملكة سنغى فى القرن الرابع عشر بالــــــذات .

كذلك مملكة برنو الواقعة شرقى مالى ، وكانت قاعدتها مدينة (كاكا) .

أما مملكة كانم فقد قامت فى الشمال الشرقى من بحيرة تشاد وكانت عاصمتها مدينة جنى ــ ومن يريد التوسع فى دراسة هذه الممالك الاسلامية ــ انظــــر :

عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى غرب أفريقيا (١٩٦٥) ص . ١٤ وما بعدهــــا .

(٨) ابن بطوطة ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ١٣٧٧ م) :

تحفة النظار فى غرائب الابصار وعجائب الاسفار (بولاق ١٩٣٤) ص ٣٧٦ وما بعدهــــا .

ملاحظة : يشير ابن خلدون الى أن القرن الخامس الهجرى يمثــل انتصار المذهب المالكى وسيادته بالمغرب حيث طبع الثقافة العربية والاسلامية فى هذه البلاد بطابعه الخاص ، وصحب انتشار المالكية ــ كما يقول ــ توطن الثقافة العربية نهائيا فى غرب المغرب وظهور جيل من مثقفى البربر وفقهائهم وعلمائــــــهم .

ــ انظر ابن خلدون جـ ٦ ، ص ١٥٩ .

ــ كذلك عن مذهب المالكية وانتشاره انظر :

الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصارى : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان (٤ أجزاء ــ تونس ١٣٢٠ هـ) جـ ٢ ص ٨ .

(٩) أطلق تعبير (بلاد السودان) على منطقة فى غرب أفريقيا ــ تكاد تكون محدودة تحديدا واضحا فمن الغرب والجنوب يحــدها المحيط الاطلنطى بينما حدودها الشرقية ليست واضحة بهذا الشكل ، وفى الشمال تذوب هذه الحدود فى الصحراء .

Trimingham, J. Spencer : Islam in West Africa (Oxford 1964) P. 1

لبلادهم هذه الأنماط الحضارية ، وظهر أثر ذلك واضحا فى مساجدهم وقصورهم وبلاطهم ، وفى الكثير من مظاهر الحياة فى هذه البلاد • وتعطينا المراجع التاريخية أمثلة عديدة لذلك ــ منها مثلا ما تردد عن زيارة الوفد المالى الذى زار المغرب فى عام١٣٤١م فىعصر السلطان أبى الحسن المرينى (١٣٣٠ ــ ١٣٥١) بهدف تقوية العلاقات بين المغرب ومالى ، وعندما انتهت زيارة الوفد للمغرب ــ جمع السلطان مهرة الصناع والفقهاء وأمــرهم بالتوجه الى مــالى وكان على رأس تلك البعثة المعمــارى (أبو أسحق الطويجن) الذى أشرف على بناء مسجد وقصر للملك المالى، وكان الفن المعمــارى المغربى يتميز فى ذلك الوقت بالقبــة المربعــة المزخرفة بالزليج والجص ، وقــد أسهمت هذه البعثة المغربية فى الحركة العمرانية والعلمية فى هذه البلاد ، وأجيزت على نشاطها هذا باثنى عشر ألف مثقال من الذهب(١٠) •

وحين وصلت أنباء انتصار السلطان أبىالحسن المرينى فى (تلمسان)ــ أرسل سلطان مالى وفدا للتهنئة • وقد حرص حكام مــالى على هــذه العلاقات الودية ، وعلى ارسال البعثات الثقافية الى (فاس) على وجه الخصوص لتتشرب من لبان الثقافة الاسلامية فيها •

وكان أعضاء هذه البعوث يحتلون مراكز قيادية هامة حين يعودون الى بلادهم فمنهم الأئمة ، والقضاة والمعلمون فى المدارس ، والمســاجد فى (تنبكتو)، و (غاؤ) و(جنه)، و (نيانى) التى عدت مدنا ثقافية هامــة •

---

(١٠) تحدث عن هذه الزيارة بالتفصيل العديد من المراجع مثل :

المقرى ، ابو العباس احمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب (بولاق ١٨٦٢) ــ وقد انتهى منه مؤلفه سنة ١٦٢٩ م •

Niam, Djibril : L'Empire de Mali (Conakry 1948)

ومؤلف هذا الكتاب غينى ويعتبر من الافارقة القلائل الذين كتبوا كتابة علمية دقيقة عن تاريخ هذه البلاد وله كتب أخر سنشير اليها فيما بعد منها :

— Ghana (Conakry 1959)

— Histore de l'Afrique Occidentale (Conakry 1960)

وهذا الكتاب الأخير الفه بالاشتراك مع زميل له هو كانال (Canale)

هذا وسنلمس فيما بعد أثر المغرب فى مختلف نواحى الحياة فى بلدان غرب افريقيا ــ عند تعرضنا لدراسة سمات الحضارة العربية الاسلامية فى هذه البلاد •

وقد أشار المؤرخ السعدى السودانى ــ فى أكثر من موضع فى كتابه الى أن حضارة غرب افريقية ــ حضارة مغربية قلبا وقالبا (١١) •

٢ ــ التجـــــارة :

لعبت التجارة دورا هاما فى نشر الاسلام والثقافة العربية فى غرب افريقيا حتى أن (ارنولد) يشير الى أن التجارة والاســلام فى غــرب افريقيا مرتبطان كل الارتباط (١٢) •

فرغم العقبات الطبيعية التى كانت تعوق الوصول الى قلب القارة ــ كانت هناك مراكز تجارية بمثابة (الموانى) يتطلع اليها المسافرون عبر الصحراء حيث يجدون نبض الحياة فيستريحون ويستبدلون الجمــال الضعيفة المنهكة بغيرها ليستطيعوا مواصلة المرحــلة ، وفيها يحــدث التبادل التجارى ، وكانت بحيرة تشاد نفسها حلقة هامة من هذه السلسلة من طرق الاتصال •

فالنيجر ينحنى انحناءة عظيمة صوب الشمال ليقــرب من شــقة الصحراء ، وهذه الصحراء لا تتصل بساحل المحيط الأطلسى اتصــالا مباشرا ــ ولكنها تترك سهلا ساحليا يجعل الاتصــال عبره ممــكنا بين الجنوب والشمال ، وعبر هذا الطريق اتصل المغــرب ــ منــذ أقــدم العصور ــ بالسهل الخصيب الواقع جنوب الصحراء الكبرى ، وكانت التجارة من أهم دوافع الاتصال بين الاقليمين • وكان للمغاربة دور هام

---

(١١) السعدى ــ مرجع سابق ص ٢١ ، ٥١ ، ٥٧ .

ملاحظة : نعلق أهمية خاصة على ما كتبه السعدى ، وكذا محمود كعت، الملقب بأبى الثنــاء محمود بن عمــر كاتى الصنهاجى التمبكتى (١٤٦٣ ــ ١٥٤٨) قاضى تمبكتو ، وصاحب كتاب « تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش ، واكابر الناس » ــ نشره هوداس ، وديلافوس (باريس ١٩١٣).
وذلك لأن الكاتبين سودانيان وقريبان من الاحداث التى عالجاها ــ وكثيرون من المؤرخين اخذوا عنهما .

(١٢) ارنولد ــ مرجع سابق ص ٣٧١ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ .

فى هذه التجارة ، وكان ملح الطعام ــ الذى يستخرج من مناجمه الواقعة جنوب المغرب الأقصى ــ من السلع الهامة التى يحتــاج اليهــا الزنوج وغيرهم من شعوب المنطقة الواقعة جنوب الصحراء ، هذا بالاضافة الى النحاس ، والمنسوجات ، والتمر ، والعقــود والحــلى ــ وكانوا على استعداد لمبادلة هذه السلع بالذهب والمحاصيل الافريقيــة الرعوية أو الاستوائية التى وجدت طريقها الى البحر المتوسط وأوربا على يد التجار المغاربة على الخصوص • ويكفى أن نذكر أن هذه البلاد انفردت لفترة طويلة بثروتها الذهبية ، وقد كانت المصدر الرئيسى لذهب العالم الى أن اكتشفت مناجم أمريكا الجنوبية والهند وجنوب افريقيا (١٢) •

وانتشر الاسلام انتشارا سريعا وهادئا « دون اللجوء للعنف » عبر هذه الطرق التجارية الممتدة من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى أو على طول المحيط الأطلسى الى بلاد السنغال ، وأعالى النيجر ، ومنطقة بحيرة تشاد • وكان لتجار الفولانى والحوصا ، والتكرور المسلمين أيضا دور كبير فى هذا المجال •

فقد كان التجار المسلمون فى تنقلهم بين المراكز التجارية يحتــكون بالزنوج ويؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصى وأمانتهم ونظافتهم • وكثيرا ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثيرين من هؤلاء الزنوج فى الاسلام • وعدد غير قليل من هؤلاء التجار كان يجمع بين التجارة والعــلم ، فاذا ما استقر بهم المقام أنشأوا حلقات لتعليم القرآن أو للعبادة وقامــوا بمزاولة النشاط التعليمى والدعوة لاتباع مبادىء الاســلام بجــانب نشاطهم التجارى ولذا تركز الاسلام على الخصوص فى المبدأ فى المراكز التجارية الهامة ، والمدن ثم تسرب منها الى المناطق البعيدة ــ وهــكذا دخل الاسلام الى كثير من بلدان غرب افريقيا فى ركاب التجار وكنتيجة لنشاطهم ــ وانتشر بعد ذلك أكثر بانتشار نفوذ المسلمين فقد أصــبح الاسلام ــ كما يقول ترمنجهام ــ « بمثابة تصريح مرور لمن يريد الاتجار

---

(١٣) Fage : An Introduction to the History of West Africa (Cambridge 1955) P.P. 9-10.

بنجاح مع الامارات الاسلامية فى افريقيا الغربية » (١٤) .

وكان الوثنيون يعيشون فى وئام مع المسلمين ، حتى أن المسلمين كانوا يقيمون مراكز تجارية داخل مناطق التجمعات الوثنية دون خوف أو رهبة ، وساعد قيام ممالك اسلامية قوية فى غرب افريقيا على استتباب الأمن مما أدى لازدهار التجارة التى أصبحت تلعب دورا هاما ورئيسيا فى اقتصاد هذه الممالك . ففى مملكة مالى مثلا ــ يقدر نيان (Nian) عدد الجمال التى كانت تستخدم فى عمليات التبادل التجارى فى عام ١٣٥٠ بما لا يقل عن ١٢ ألف جمل ، وعند حديثه عن اقتصاد مالى يذكر أن تجارة القوافل تلعب دورا هاما فى اقتصاد المملكة ، وان عددا كبيرا من البربر والطوارق يشتركون فى عمليات التبادل التجارى .

ومن القبائل التى لعبت دورا هاما فى التجارة عبر الصحراء ــ قبائل (صنهاجة) و (لمتونة) و (مسوفه) و (جداله) ــ ولذا فان اعتناق (صنهاجة) الاسلام فى القرن العاشر يعتبر حدثا هاما فى انتشار الاسلام والثقافة الاسلامية فى غرب افريقيا كله ، لان هذه القبائل اندفعت فى نشر الاسلام بين غيرها من سكان غرب افريقيا وهكذا اصبحت كثير من المراكز التجارية مثل (اودغشت) مصادر اشعاع دينى وثقافى(١٥) .

واذا كانت التجارة قد ساهمت فى نشر الاسلام فقد ادى انتشار الاسلام الى مضاعفة النشاط التجارى ، فقد تغيرت النظرة الى الزراعة واصبحت للتجارة مكانة خاصة ووجدت طبقة جديدة من التجار العرب والافارقة فى كل من غانه ، ومالى وغاؤ ــ وأدى ذلك بالتالى الى نشوء ونمو المدن التجارية الكبرى مثل (كومبى) و (تنبكتو) و (نيانى) و (جنه) و (غاؤ) . وكانت (كباره) ميناء تنبكتو الحربى والتجارى ملتقى البضائع القادمة من شمال افريقيا ومنها توزع الى مالى ، والنيجر الاعلى ، والداهومى كما تحمل اليها البضائع الافريقية المنقولة عبر نهر النيجر فى طريقها الى شمال افريقيا حيث قامت المدن التجارية فى المغرب،

---

(١٤) انظركتابه الذى اشرنا اليه سابقا عن امبراطورية مالى .
Trimingham : Op. cit. p. 28.

(١٥) عبد الرحمن زكى ــ مرجع سابق ص ٥ وما بعدها .

والقيروان ، وتونس ، وطرابلس وأصبح التجار يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع الافريقى ، بل ان بعض القبائل الافريقية اتخذت التجارة كحرفة رئيسية عرفت بها ، واصبحت فى المدن التجارية الهامة احياء خاصة للتجار العرب يقيمون فى دور بها بنوها فوق مستودعات بضائعهم ، وحرص هؤلاء على ان يتعلم ابناؤهم فى المدارس والمساجد مع زملائهم الافريقيين (١٦) •

والحقيقة ان الذين كتبوا عن قصة التجارة فى غرب افريقيا ، وما كان يتم فى هذه الرحلة الطويلة فى هذه الايام التى لم يكن عامل السرعة والوقت فيها له من الاعتبار كما نحس نحن الان — يعطونا صورة رائعة الأثر الاحتكاك البشرى والحضارى الثقافى عن الطريق • فابن بطوطة مثلا يتحدث عن الطرق التجارية والابار حيث يرتوى المسافرون ويستقرون ، وحيث كانت قوافل التجار تقيم فى ضيافة التجار المحليين أو الشيوخ أو تكترى مسكنا صحراويا تقضى فيه ايام الاستراحة ، وتكون مناسبة لتبادل المنتوجات وشراء لوازم السفر ، كما يذكران الامتزاج كان على اشده بين السودانيين والتجار المغاربة بالذات الذين كانوا وسطاء فى العمليات التجارية ، كما كانون يقومون بالترجمة والسمسرة ، ويعملون كأدلاء وحراس فى الصحراء (١٧) •

والبكرى يتحدث عن شبكة الطرق الصحراوية التى انتشرت فى هذه المنطقة فى غرب افريقيا ، ويعطى تقديرات تقريبية للمسافة التى تستغرقها الرحلة فى كل مرحلة من مراحلها (١٨) •

وكانت طرق (المبادلة) هى السائدة ، لكن العرب ادخلوا النقود الى

---

(١٦) قداح ، نعيم : افريقيا الغربية فى ظل الاسلام (دمشق — ١٩٦٠) ص ١٢٥ وما بعدها .

(١٧) رحلة ابن بطوطة (دار التراث — بيروت ١٩٦٨) ص ٦٥٨ وما بعدهـــا .

(١٨) البكرى ، أو ببيد الله : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (نشر دى سلان — الجزائر ١٨٥٧) (مشتق من كتاب المسالك والممالك) .

— البكرى (١٠٣٠ — ١٠٩٤) جغرافى اندلسى توفى فى قرطبة وقد تجول فى السنغال وزار (كومبى) عاصمة غانا .

جانب القطع الذهبية المسكوكة ، وقد وجدت فى القصر الملكى فى مالى ، وفى (غاؤ) قطع نقديه مغربية ومصرية ــ ويشير (انتاديوب) Anta Diap فى حـديثه الطـويل عن التجـاره فى غـرب افريقيـا الى ان الاسر المالكة فى غرب افريقيا اصبحت تشترى حاجياتها من منسوجات وتحف وغيرها من المغرب مباشرة او عن طريق التجار المغاربة ، كما يشير الى ان التجار الافارقة قلدوا المغاربة فى اقامة بعض الاسواق فى مدن معينة فى ايام معلومة كما يشير الى ان حكام هذه البلاد ــ حتى من لم يعتنق منهم الاسلام ــ اضطروا خاصة فى المدل التجارية الى اقامة قضاء اسلامى يحكم حسب الشريعة الاسلامية وذلك للفصل فى القضـايا التى تتعلق بمصالح التجار المسلمين • حرصا منهم عى ان يشعر هؤلاء بالمطمأنينة فى معاملاتهم التجارية (١٩) •

٣ ــ الحـــــج :

كان الحج وما زال من اهم العوامل التى تيسر للمسلين فرصة الالتقاء والتبادل الفكرى والثقافى • وقد حرص سلاطين للدول الاسلامية فى غرب افريقيا وشعوبها على اداء هذه الفريضة رغم ما كنوا يتكبدونه من مشاق لطول الطريق وعورته ، وكانت هناك طـرق معروفة تطرقها قـوافل الحجاج من اهمها :

(أ) طريق صوب الشمال ــ عبر الصحراء الى ساحل البحر المتوسط، ثم الاتجاه شرقا تجاه مصر ومنها عبر البحر الاحمر الى الحجاز •

وحين انتشرت الطريقة (التيجانية) كان اتباعها يفضلون هذا الطريق لانه يتيح لهم فرصة زيارة مقبرة السيد احمد التيجانى بفاس •

وبعض القبائل ــ خاصة قبائل الهوسا ــ كانت تفضـل طريق : تونبكتو ــ جاؤ ــ غات ــ غدامس ــ طرابلس ، لانه كان آنا ، كمـا كان يتيح لهم الفرصة للتجارة فى اثنـاء الطـريق • على ان المـوكب

---

(١٩) الفصل الثانى على الخصوص . والكاتب سنغالى وهذا يوضح اهمـــية الكتـاب .
Anta Diop : L'Afrique Noire Pré-Coloniale (Paris 1952).

الصحراوى لشعوب غرب افريقيا الذى كان يفضل الطريق الشـــمالى للحج ـــ عادة يذهب بمعية الوفـــد المغربى عبر الشمال الافريقى وليبيا ومصر ، وكانت هذه بالطبع فرصة نادرة للاندماج والتعارف •

(ب) طريق صوب الشرق ـــ الى سودان وادى النيل ، ثم ســـاحل البحر الاحمر فالحجاز ، وهذا الطريق لم يكن مأمونا ، فقد كان المسافر فيه يتعرض للنهب بالاضافة الى الحروب الداخلية والاضطرابات •

ولعل قبائل الهوسا ـــ بعد اسلامها ـــ كانت اكثر قبائل غرب افريقيا حرصا على أداء فريضة الحج رغم العقبات التى تكتنفها ولعل ذلك يرجع لميلهم للحركة وللتجارة •

وكانت رحلة الحج بالغة الأثر فى نفس الافريقى الوافد من غـــرب القاره مخترقا كل هذه الافاق الى الاراضى الحجازية حيث يجتمع حجاج المسلمين من مختلف البقاع فى وقت واحد • فقد كانت هذه الرحلة تشعر الافريقى بالاخوة التى تربط بين جميع المسلمين ، وبهـــذا تتحطم كل الفواصل القبلية ـــ وكما يقول ترمنجهام (Trimingham) « ان شعورا بأن الاسلام ديانة الأفارقة جميعا ـــ كان يتملك المســـافرين فى رحلة الحـــج »(٢٠) •

وهكذا أصبح خروج المسلمين من غرب افريقيا ملوكا وشعوبا الى الحج واتصالهم بالشعوب الاســـلامية المختلفة فى المغرب أو مصر أو الحجاز تأكيدا لروح الاخوة الاسلامية التى فرضها الاسلام(٢١) •

ولعل من اشهر مشاهد ركب الحجاج السودانيين التى سجلها التاريخ ـــ وفد الحجاج الذى كان على رأسه منسى موسى ـــ ســـلطان مالى (٧٢٤ هـ ـــ ١٣٢٣ م) والذى قيل انه كان يضم اكثر من عشرة الآلاف حاج ، وقد مر بمصر فى طريقه الى الحجاز فى عهد السلطان المملوكى الناصر محمد بن قلاوون • والذين تحدثوا عن هذا الموكب يعطون لنا

---

(٢٠) Trimingham : op. cit. p. 88.

(٢١) السعدى ـــ مرجع سابق ص ١٦ •

صورة لعل فيها شيئا من المبالغة ، لكنها لا تخلو من حقيقة ، فقد احاط هذا السلطان نفسه بمظاهر الترف والاسراف فى مصر وحمل معه كميات كبيرة من الذهب الخام ، حتى قيل انه لم يدع اميرا من امراء المماليك فى مصر ، ولا رب وظيفة سلطانية الا وصله بحمل من الذهب ، كما افاض من حباته على الفقراء فى الأراضى الحجازية ، ومنح عن سعة حتى قيل ان قيمة الذهب انخفضت انخفاضا ملحوظا لكثرة ما انفقه • ومن طريف ما ذكر عن بعثة الحج هذه ان سلطان مالى فى طريقه الى الحج بعث رسالة الى سلطان المغرب يخبره فيها ان مركبه سيمر من الطريق المحاذى لساحل البحر المتوسط ، فأصدر السلطان المغربى اوامره بحراسة موكب السلطان المالى اثناء اجتيازه الصحراء ، وابست المملكة حلة الزينة لاستقبال ضيف المغرب ، الذى أحاطت به مظاهر الابهة والبذخ وحمل معه احمالا من الهدايا قدمت الى الحضرة (بفاس) وتركت اثارها فى نفوس المغاربة الذين كانوا ينظرون الى القادمين نظرة الاحترام والتقدير • وعند ما انطلق الموكب من (فاس) الى (تلمسان) — صحبته كوكبة من الخيالة المغاربة الذين كانوا يحملون أوامر بمضاعفة مظاهر الحفاوة عند المرور (ببجاية) وتخوم تونس • وحل الموكب بمصر حيث وجد الملك المالى — عاهل الجركس يفاتحه فى موضوع اقامة صلات تجارية وسياسية بين البلدين يجب اخفاء امرها عن المغرب • لكن الحديث بين الملكين بلغ فاس ، ولا يطيل المؤرخون فى الحديث عما جرى بعد ذلك ، لكن الظاهر ان ملك مالى اكد لملك المغرب بعد عودته بأن الحلف الذى سبق ان عقد بين المملكتين لن يتأثر ، كما ان الحاكم المصرى نفسه سعى بعد ذلك وبكل الوسائل لتأييد حسن نواياه تجاه المغرب (٢٢) •

٤ — الطرق الصوفية :

ارتبط انتشار الدعوة الاسلامية فى غرب افريقيا بالذات — بانتشار الطرق الصوفية وعلى الاخص القادرية ، والتيجانية • وقد زاد عدد

---

(٢٢) العمرى : مسالك الابصار ص ٩٤٣ وما بعدها .
— وابن الوردى : ذيل المختصر فى اخبار البشر ج ٢ ص ٢٧٥ .

اتباع هذه الطرق الصوفية ولا سيما من المشتغلين بالتجارة ، ومن العلماء والفقهاء • ولعب اتباع هذه الطرق دورا دينيا وسياسيا هاما كان كبير الاثر فى تاريخ وحضارة هذه البلاد ونهضتها ، فقد اصبح كُل مسلم تقريبا يرى لزاما عليه ان يرتبط باحدى هذه الطرق الدينية •

واقام اتباع هذه الطرق ــ الزوايا للعبادة ، ولايواء الوافدين المحتاجين للمأوى والطعام ، وللاعتكاف بعيدا عن زخرف الحياة وملذاتها للدرس والتفقه فى شؤون الدين • وكانت لكل طريقة تنظيماتها واعضاؤها وعلى رأسهم شيخ الطريقة ، وللطريقة اورادها وتقاليدها الخاصة • هذا وان كانت جميع تلك الطرق ترمى الى غاية واحدة وهى الوصول بالنفس الانسانية الى درجة الكمال ــ لكن الوسيلة لتحقيق هذه الاهداف اختلفت من طريقة الى اخرى •

وقد انتشرت القادرية (٢٣) بالذات فى السودان الغربى خاصة فى القرن الخامس عشر على يد مهاجرين من قبيلة كونتا (٢٤) من (توات) ، واتخذوا من (ولاته) أول مركز لطريقتهم ، وانتشر اتباع هذه الطريقة من الفقهاء والمريدين من السنغال الى مصب النيجر ، وأقاموا المراكز لبث دعوتهم فى مختلف الجهات ، بل نظموا البعوث الى الازهر الشريف ، والمعاهد الدينية بتونس ، وطرابلس ، والقيروان فانتشرت القادرية فى (جنى) و (تنبكتو) وغيرها من العواصم بغرب أفريقيا وتفرعت منها نظم جديدة اتخذت اسماء أخرى منها (الفضلية) التى تنسب الى الشيخ

---

(٢٣) ملاحظة : نشأت القادرية فى العراق فى القرن الحادى عشر ، وتنسب الى سيدى عبد القادر الجيلانى •

(٢٤) جاء جدهم محمد الكنتى ــ من توات فى القرن الخامس عشر وتعرف الطريقة عادة بالطريقة البكائية نسبة الى ابنه أحمد البكاى (ت ١٥٠٤) ، لكن الفضل فى نشر الطريقة ومبادئها يرجع الى عمر الشيخ ابن احمد (١٤٦٠ ــ ١٥٥٣) ــ وقد تلقن العلم ومبادىء الاسلام على يد المصلح التواتى (محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى) عند عودة هذا الاخير من بلاد الهوسا ــ فلما رسخت قدماه أرسل اتباعه لنشر الاسلام فى الصحراء وحوض النيجر وبلاد الهوسا •

محـــمد فيضـــل (١٧٨٠ ــ ١٨٦٩) و (المريديـــة) التى تنسب الى (أحمد بامبا)(٣٥) •

اما التيجانية فتنتسب الى أحمد بن محمد التيجانى ، وقد انتشرت على وجه الخصوص حين قام على بن عيسى (ت ١٨٤٤) زعيم زاوية تماسين (Temasin) بجهد ضخم لنشرها خاصة بين رجـال القوافل والتجار فانتشر اتباع الطريقة فى حوض السنغال ، وفى تنبكتو وفى سيجـــو ، وأسسوا زوايا فى (كانـــو) و (وبـــرنو) و (واداى) و (شنقبيط) واستمرت الطريقة التيجانية فى النمو والازدهار ، وزاد عدد اتباعها حتى أصبحت الطريقة السائدة فى غرب أفريقيا (٣٦) •

ولقد لعبت الطرق الصوفية دورا هاما وخطيرا فى مقاومة الاستعمار الاوربى • وان كان هذا الدور لم يكشف عنه النقاب تمـــاما الى الآن اذ أن اتباع هذه الحركات والمريدين الذين التفوا حولهم اعتبروا ألجهاد السياسى المتصل بالوطن وحريته ، والوقوف فى وجه اعدائه والمغتصبين ــ جزءا من واجبهم لا ينفصل عن الجهاد فى سبيل نشر الدين ، فمعظم المراجع الاجنبية تعالج الامر على أنه ثورات من أفراد خارجين على القانون وعلى النظام ــ فواجبنا يحتم أن نضع هذه الحركات الوطنية فى مكانها الصحيح •

وقد أدى تبنى هذه الحركات لقضية الجهاد الوطنى ــ الى شعبيتها واندفاع الشباب بالذات للانضام اليها ، ومن المعروف ان (الحاج عمر) زعيم السودان فى القرن التاسع عشر جعل من التيجانية وسيلة للوصول

---

(٣٥) وانظر محمد بلو : اتفاق الميسور فى اخبار بلاد التكرور .
Trimingham . op. cit P.P. 94-96 ــ وكـــــــذلك

(٣٦) لمن يريد التوسع فى دراسة التيجانية انظر :
(ا) ابو العباس أحمد بن أحمد العياشى : كشف الحجاب على من تلقى مع التيجانى من الأصحاب (فاس ١٣٢٥ هـ) .
(ب) جواهر المعانى ، وبلوغ الامانى فى منفى الشيخ التيجانى ــ المعروف بالكتاش (القاهرة ١٣٤٥ هـ) ».

الى أهدافه فى طرد الفرنسيين من البلاد ــ ولــذا كثيرا ما يطلق على حركته لفظ (العمرية) (٢٧) •

٥ ــ توافد العلماء ورجال الدين لغرب أفريقيا :

وفد على غرب افريقيا عدد كبير من العلماء ورجال الدين من مختلف الاقطار الاســلامية للتدريس فى مدارس ومساجد تنبكتو ، وجنى ، ومالى ــ وغيرها من حواضر غرب افريقيا احساسا منهم بواجبهم تجاه اخوانهم فى هذه البلاد ، وأسهم هؤلاء فى نشر الثقافة الاسلامية والعربية فيهــا •

هذا كما توافد الطلاب من أبناء السودان الغربى الى معاهد فاس وغيرها من مدن المغرب ، وكذا الازهر الشريف والقيروان وتلمسان (٢٨) •

وقد تشبه كثير من حكام غرب أفريقيا المسلمين ــ بالحكام المسلمين فى باقى جهات العالم العربى ــ فأجزلوا العطاء لرجال العلم والادب والدين الوافدين من المغرب وغيره من الاقطار الاســلامية للاســهام فى النهضة الدينية والثقافية فى هذه البلاد ، كما استقدموا المهنــدسين المعمارين من فاس وغيرها لبناء القصور والمساجد والمدارس • وقد أقبل الافريقيون على معاهد الدين والعلم بشغف كبير ، وترتب على هــذا

---

(٢٧) Dubois, F.: L'Islam Noir P. 60.

أنظر نعيم ، قداح : مرجع سابق ١٣٥ ــ وما بعدها .

ملاحظة : من الأمثلة على ما قام به اتباع هذه الحركات الدينية من دور فعال ضد الاستعمار ما قام به اتباع القادرية واتبــاع ابى عبد الله محمد الجزولى (ت ١٤٦٣) مؤلف « دلائل الخيرات » ــ ضد الاستعمار البرتغالى للثغور المغربية ، كذلك ما قام به أو عبد الله محمد بن ابى العباس أحمد الزيادى العياشى ــ فى النصف الاول من القرن السابع عشر ضد المستعمرين الاسبان والبرتغــــــال .

أنظر : املاق ، عبد القاهر بن محمد بن أحمد بن حسن أبو املاق : الخبر عن ظهور الفقيه العياشى بهذه البلاد ، وذكر سبب قيــامه بوظيفــة الجهــــــاد .

وبالطبع يبرز أيضا فى هــذا المجال دور (السنوسية) فى محــاربة الاستعمــار الايطالى .

(٢٨) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص ١٤٦ .

قيام نهضة علمية حقيقية أثرت فى مختلف نواحى الحياة فى غرب أفريقيا، ونشأت طبقة أفريقية مثقفة بالثقافة الاسلامية • فالملاحظ أن كثيرين من الوزراء وغيرهم من رجال الدولة فى أقطار غرب أفريقيا كانوا من المسلمين فقد أصبح الملوك يطمئنون الى أن يعهدوا لهم بشؤون البلاد السياسية والاقتصادية (٢٩) •

ويشير ابن بطوطه الى ان عددا من رجال العلم من مختلف الأقطار العربية كان يقيم بمدينة مالى • ومن طريف ما يذكره اثناء اقامته بهذه المدينة أنه اصيب بمرض حاد فى معدته نتيجة أكله عصيده مصنوعة من شىء يشبه (القلقاس) ، ولم يسعفه سوى طبيب مصرى قدم له دواء مسهلا يسمى بيدر (٣٠) •

وقد اشتهر عن السلطان اسكيا محمد سلطان مالى ١٤٩٣ ــ ١٥٢٨ حبه للعلم والعلماء ، فقد استقدم الكثيرين منهم ورحب بهم وأغدق عليهم من المال والهبات واقام كثيرون منهم فى (غاؤ) و (جنه) و (تنبكتو) ــ فكان وجود هؤلاء المثقفين العرب نواة نهضة ثقافية شملت البلاد فى القرنين السادس عشر ، والسابع عشر ، واصبحت اللغة العربية بفضلهم ــ لغة البلاد الرسمية • وحين ادى اسكيا محمد فريضة الحج كان بصحبته المؤرخ (محمد كعت) وقد مر بمصر وتعرف على العالم المصرى جلال الدين السيوطى ، وكان من اهم رجال العلم فى أيامه العالم الفقيه (عبد الكريم بن محمد المغيلى التلمسانى) الذى عاش فترة غير قصيرة فى تنبكتو اهم المراكز الاسلامية فى سنغاى ــ وقد ازدهرت تجارة الكتب فى (تنبكتو) ، واشار الرحلة العرب الى وجود العديد من المخطوطات النادرة ببعض مكتباتها ، كما وجد فيها نساخ متخصصون فى نسخ هذه الاصول ، هذا بالاضافة الى خزانة الكتب العامة التى كان يستعين بها اهل العلم والادب فى بحوثهم (٣١) •

---

(٢٩) نعيم ، قداح : مرجع سابق ص ٤١ .
(٣٠) ابن بطوطة جـ ٤ ص ٣٩٧ .
(٣١) عبد الرحمن زكى : مرجع سابق ص ٥١ ، ٥٢ .
ــ ونعيم قداح : مرجع سابق ص ٧١ .

٦ ــ قيام الحركات الاصلاحية :

ارتبط انتشـــار الاســـلام فى غـــرب أفريقيا ــ بظهور حـــركات اصلاحية على رأسها زعماء تحمسوا لنشر الاسلام ولارشـــاد الناس الى حقائقه ، ولتخليص الدين مما علق به من شوائب، واستطاع هؤلاء الزعماء ان يجمعوا حولهم عددا كبيرا من الاتباع والمريدين لما رأوا فيهم من التقوى والصلاح ، وقد تبلورت جهـــود هؤلاء المصـــلحين واتباعهم فى مجـــالين :

المجال الاول : مجال الوعظ والارشاد والتأليف ، فتركوا لنا ثروة كبيرة من مؤلفاتهم فى مختلف الفروع الدينية والعلمية كالتفسير والفقـــه وشرح الاحاديث النبوية والتصوف والعقائد واللغة والشريعة الاسلامية ــ وغير ذلك من ضروب العلم والمعرفة • ولا شك فى ان هذه الثورة ــ التى فقد الكثير منها للأسف ، كما نقل المستعمرون الاجانب جزءا هاما من هذا التراث الى مكتبات بلادهم بينما الباقى وهو عدد قليل أيضـــا لا زال مخطوطا حبيس دور الوثائق ــ تحتاج لان يكشف عنها القناع ونحكف على بحثها ودراستها لنقف على ثمرات فكر وجهد هؤلاء العلماء بالاضافة الى توضيح المدى الذى وصلت اليه الحضارة والعلم ، والنهضة الاسلامية فى هذه البلاد فى ايامهم •

ونشير فى هذا المجال الى ان عددا هاما من نفائس المخطوطات قـــد تداولته خزائن فاس ، والصحراء مرات عديدة قبل ان تستقر بصفة نهائية فى اما كنها التى توجد بها الآن او التى اختفت فيها بعد ذلك ، ولا شك فى ان الكثير منها قد ضاع نتيجة هذا الانتقال الذى كان يجىء فى ظروف عصيبة ، ويقال ان الحاجب السلطانى أو كبير الوزراء ابا محمد عبد الله الطريقى عندما بنى مسجد الســـوق الكبير بفاس ، واراد أن

ملاحظة : اشرنا من قبـــل الى محمود كعت ــ قاضى تمبكتو واهميـــة كتابه (تاريخ الفتاش) .

اما عن العالم الفقيه (عبد الكريم المغيلى) فسنفردله باذن الله بحثا خاصا نعرف فيه بالدور الذى قام به هو وصفوة اخرى من العلماء والفقهاء فى غـــرب أفريقيـــا .

يؤسس خزانة تليق به يحبسها عليه ــ ارسل فى طلب ذخائر الكتب من الصــحراء (٣٢) •

المجال الثانى : مجال الجهاد ، فقد اصطدمت حركات الاصــلاح الدينى بالسلطات الحاكمة فى هذه البلاد ــ وادى هذا لحروب ومعارك •

وكما سبق ان ذكرنا ــ لم يكن من الممكن الفصل بين حركة الاصلاح الدينية وحركة الجهاد المسلح لاعلاء شأن الاسلام فى السودان الغربى ، واخضاع البلاد الوثنية لسلطان القوات الاسلامية • ولعل حركة عثمان دان فوديو ، واصطدامه بحكام الهوسا والحروب التى نشبت بينه وبينهم تعطى مثلا قويا لذلك •

والحركات الاصلاحية فى غــرب افريقيا هى فى حقيقتها جــزء من الحركات الاصلاحية فى العالم الاسلامى التى كان هدفها محاربة البدع والعادات الضارة التى شاعت فى حياة الناس ، وتهدف الى اصــلاح التعليم ، والملاءمة بين الشريعة الاسلامية وبين الفكر الحديث ، وللدفاع عن الاسلام والبلاد الاسلامية فى وجه تيار من الافكار والمعتقــدات المغايرة لتعاليم الاسلام • وهذه الحركات الاسلامية فى غرب افريقيا بالذات كانت تهدف الى تقريب الفجوة بين الثقافة الافريقية والثقافة الاسلامية بحيث تحتفظ الثقافة القديمة بخير ما فيها مع التطور الذى يفرضه للدين الاسلامى بتعاليمه ومبادئه •

---

(٣٢) تحتفظ دور الوثائق فى العواصم العربية والاوربية بالكثير من مخطوطات علماء غرب افريقيا وقد اشرت فى بحث مجلة (البحث العلمى) العدد ٢٦ (لسنة ١٩٧٦) التى يصدرها المركز الجامعى للبحث العلمى بالربــاط ــ الى بعض مخطوطات المصلح عثمان دان فوديو ، وابنه محمد بلو ، واخيه عبد الله المجودة فى دار الوثائق بالرباط .

ــ وانظر ملحق المخطوطات العربية فى نيجريا فى كتاب الاستاذ عبد الرحمن زكى •

عبد الرحمن زكى : الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا (مرجع سابق) ص ١٦٤ ، ١٧٨ . وهو يشير فى هذا الملحق الى العديد من المخطوطات العربية فى الدين والادب والاجتماع الموجودة بمكتبة ايبدان بنيجيريا ومكتبة مــدرسة الشريعة ، ومكتبة الوزير جنيدو فى سوكوتو، ومخطاطات كانو ــ بالاضافة الى بعض مخطوطات دار الكتب الوطنية فى باريس .

ولهذا نجد المصلحين فى غرب افريقيا يركزون بالذات على المعتقدات التى كانت سائدة فى المجتمع الافريقى مثل التقاليد المتبعة عند ولادة الطفل او عند الزواج او الوفاة او غير ذلك ، والحوا على تطويرها بحيث تساير العقيد الاسلامية • ولم يكن الهدف هو احداث تغيير جذرى فى حياة الناس اليومية الا بالقدر الذى يمس صميم الدين وما نهى عنه وما يطالب به • ولقد هال هؤلاء الذين دعوا للاصلاح ما وجدوه من انغماس الناس فى كثير من الامور التى ينهى عنها الاسلام ، بل لقد شاعت كثير من الاخطاء باسم الاسلام وفى ظله ، كما أن الأمر كان يتطلب من وجهة نظر هؤلاء المصلحين — حربا جهادية لاعادة للاسلام مجده وسطوته وللوقوف فى وجه تيار الوثنية والاستعمار (٣٣) •

ولا يمكن ان نلم هنا بجميع الحركات الاصلاحية التى انبعثت فى غرب أفريقيا ابتداء من الحركة الاصلاحية الكبرى التى تزعمها عبد الله ياسين من رباطة فى مصب السنغال الى حركة عثمان بن فودى الذى استطاع ان يقود قبائل (الفولانى)(٣٤) ويؤسس سلطنة (سوكوتو) التى لعبت دورا هاما فى نشر الاسلام فى غرب افريقيا ، هذا بالاضافة الى حركة أحمدو لوبو وولده أحمد شيخو فكل ، من هذه الحركات وامثالها تحتاج الى دراسة خاصة بها (٣٥) •

لكن ما نريد ان ننوه به هنا ان هذه الحركات الاصلاحية كان لها

(٣٣) ملاحظة : سنشير فيما بعد الى الآثار الاجتماعية وغيرها التى ترتبت على التقاء الحضارة العربية الاسلامية بالحضارة الافريقية .

(٣٤) يرى (ديبوى) ان الفولانى من البربر ، وانهم انحدروا من منطقة (أدرار) شمال السنغال واندفعوا الى السودان الغربى بعد طرد المسلمين عن الاندلس ، واشتغلوا بالرعى والزراعة ، والتجارة حتى لم شملهم (عثمان ابن فودى) فى حركته .

Dubois F.: Tomboctou, La Mysterieuse (Paris 1899) p.p. 152-153.

(٣٥) انتشرت دعوه (أحمدو لوبو) فى ماسة حيث انشأ امارة اسلامية عظيمة — ودخل مدينة تنبكت سنة ١٨٢٧ وتوفى فى عام ١٨٤٤ وخلفه ابنه أحمدو شيخو الذى توفى ١٨٥٢ .

دور هام فى توجيه الاذهان فى هذه المنطقة بل وفى العالم الاسلامى عامة الى الكثير من مبادىء الاسلام التى تناساها الناس ــ بالاضافة الى نشر الدين الاسلامى على نطاق أوسع بين الوثنين والمدافعة عنه وعن الاقاليم الافريقية فى وجه موجة الاستعمار الاوربى الصاخبة •

٧ ــ عوامل سيكولوجية :

تشير بعض المراجع العربية والاجنبية الى ان العوامل السيكولوجية كان لها اثرها الفعال فى انتشار الاسلام والثقافة العربية بين شعوب غرب افريقيا • فالافارقة قد وجدوا فى الاسلام بسماحته وبساطته وملاءمته لكل عصر وكل بيئة ــ ما يحل الكثير من المشكلات القائمة فى مجتمعاتهم ، فالاسلام يتلاءم مع البيئات التى ينتشر فيها ويخلق فى كل منها طابعا محليا ، والعبادة فى الاسلام بسيطة غير معقده ، وقد حرص المصلحون المسلمون على تذعيم هذه الحقائق بننما نجد المبشرين المسيحيين يحرصون على سلخ كل من اعتنق المسيحية من الزنوج عن قومه وعشيرته ، وحرموا عليه التمتع بمتع الحياة البريئة وابعدوه عن مشاعر طفولته المحببه اليه (٣٦) •

والحقيقة ان الالتقاء الحضارى بين الاسلام وتقاليده وانظمته وبين التقاليد والنظم المحلية الافريقية يشبه الى حد ما التقاء الثقافة العربية الاسلامية بالثقافات القديمة فى الشرق الادنى • كانت نتيجة هذا الالتقاء ظهور تقاليد يمكن ان نطلق عليها (التقاليد الاسلامية الافريقية) ــ تساير الاسلام فى جوهرها لكنها مع ذلك تحتفظ بالطابع الأفريقى •

والاسلام ملائم لحياة البدوى فى الصحراء،كما يلائمحياة الحضرى فى المدنية ــ وليس له نظام (كهنوتى) ومعقد ، ولذا وجد البدو فيه ضالتهم المنشودة ، كما وجد التجار والصناع والمثقفون فيه تنظيما لحياتهم

---

(٣٦) Carpenter. G.W. : The Role of Christianity and Islam in Contemporary Africa p. 90.

— Trimingham, S. : Chrisitan Church and Islam in West Africa (london 1955) p. 32

اليومية ومعاملاتهم ، وجابة الكثير من تساؤلاتهم واستفساراتهم (٣٧) •

هذا على ان الافريقى لم يجدفى نظم الاحوال الشخصية والاجتماعية التى يضعها الاسلام للمجتمع ما هو فوق ادراكه وحسه ، وما يتعـذر تطبيقه ، كما أن ما نادى به الاسلام من اخاء ومساواة بين المسلمين ، وما سنه للحياة الدنيا ، وما وعد به فى الحياة الاخرى ـ لقى صدى لدى الأفريقيين •

هذا كما ان الكثير من المبادىء التى نادى بها الاسلام مثل (الصدقة) و (الزكاة) و (الصلاة) و (الصوم) ـ لم تكن غريبة كل الغرابة عن المجتمع الافريقى فقد كانت هناك جذور لها فى التقاليد والعادات القبلية يمكن ان تتطور لتساير هذه الفروض الاسلامية(٣٨) •

سمات المجتمع الاسلامى العربى فى غرب أفريقيا :

كان اثر الاسلام فى المجتمع فى غرب القارة ـ عميقا ، فقد غير من عادات الافارقة بل ومظهرهم وطريقة تفكيرهم ، وخلق ثقافة اسلامية أفريقية • ولا تكاد توجد ناحية من نواحى الحياة لم تتأثر بالاسلام وتعاليمه •

وسنحاول ان نستعرض بعض مظاهر الحياة فى هذه البلاد لندرس اثر الاسلام فيها :

أ ـ المدن الاسلامية بغرب أفريقيا :

أصبحت بعض مدن السودان الغربى بفضل الاسلام مراكز علميـة واقتصادية ذائعة الصيت ، برزت فيها دور العبادة والعلم ، ووقفت على قدم المساواة مع العواصم الاسلامية الاخرى فى هذا المجال • ورغـم قلة ما كتب عن هذه العواصم وعن دورها الحضارى والاقتصادى ـ فقد نوه بها اكثر من واحد من المؤرخين الاجانب والعرب •

---

(٣٧) Trimingham, S. : Islam in west Africa (1964) p. 25.

(٣٨) Ibid : p. p. 31 and 35.

فالمؤرخ الفرنسى (دييوا) الذى سبق أن اشرنا اليه ــ يشـيد بما بلغته (تنبكتو) فى القرن السادس عشر بالذات من مجد ــ فقد كانت حاضرة ثقافية على صلة بغيرها من العواصم الثقافية الاخرى فى المغرب والعالم العربى مثل (فاس) فى المغرب و (القيروان) فى تونس و (قرطبة) فى الاندلس و (القاهرة) فى مصر •

ويذكر آن الكثيرين من علمائها رحلوا الى فاس والى مص واتصلوا بعلمائهما(٣٩) •

هذا بينما تحدث السعدى عن العلماء الذين زاروا تنبكتو للتدريس بمعاهدها ، من مختلف انحاء الوطن العربى من مغاربة واندلس وحجازين ومصريين ويذكر انها اصبحت من حواضر العلم يفد اليها الطلاب من السنغال والنيجر ومن امارات الهوسا ، وبرنو ، وكانم ــ ويذكر انها كانت سوقا للكتب تنسخ فيها المخطوطات وتوزع فى البلاد الاخـرى ويتحدث عن علمائها فمنهم (محمد بن محمود بن ابى بكر) الذى اقتنى نفائس الكتب ، وربما يأتى لبابة طالب يطالب كتبا فيعطيها له دون معرفة سابقة ، ومن علمائها البارزين أحمد بابا • وقد وصل بعض هؤلاء العلماء ــ كما يقول السعدى الى درجة لا تقل ان لم تزد عن مستوى علماء المسلمين فى الاقطار الاخرى (٤٠) •

أعطى لنـا الحسن بن الوزان صوره عن تنبكتو حين زارهـا فى اوائل القرن السادس عشر (٤١) كما زارها مؤخرا بعض الرحالة الاجانب

---

(٣٩) Dubois ; F. : Toumbouctou, la Mysterieuse (Paris 189 P. 175

(٤٠) السعدى : مرجع سابق ص ٥١ ، ٦٢ .

(٤١) The history and Description of Africa - written by al-Hassan Ibn Mohmamed al Wezan al Fasi-Done into English in the year (1600) by John Pory (London 1896) p. 824.

من امثال بارث Barth الذى زارها فى (١٨٥٣ ــ ١٨٥٤ م) وتحدث عنهـــا (٤٢) .

وقد ذاعت شهرة معهد (سنكورى) بتنبوكتو فاصبحت له مكانه الازهر ، والقرويين وغيرهما من معاهد العلم بالعالم الاسلامى ، وقد ذكر السعدى بعض العلماء الذين كانوا يدرســون فيه ، وبعض الــكتب التى كانت تدرس فى حلقات الدرس وهى كتب فى الفقه والحديث والمنطق والنحو واللغة وغيرها من فروع المعرفة كما تحدث عن مسجد (سيدى يحيى) وغيره من مساجد تنبكتو والاثار الاخرى بها مثل القصبة التى بناها جؤدر باشا قائد المنصور الذهبى(٤٣) .

ومن المراكز الاسلامية الاخرى بالسودان الغربى مدينة (جنى) ــ وهى تقــع على مسافة مائتى ميل الى الجنوب الغربى من (تنبكتو) على الضفة اليسرى لنهرى بنى (Beni) احد روافد النيجر . وقد أسست قبل تنبكتو بوقت بعيد ، لكنها لم تدخل فى دائرة النفوذ الاسلامى الا منــذ القرن الخامس الهجرى حين اسلم أميرها فى عام ١٠٥٠ م وبنى مسجدها العتيق على نظام المسجد الحرام بمكة . وقــد بلغت درجة كبيرة من التقدم والازدهار فى المجالين الاقتصادى والعلمى ــ فى ظل الحضارة الاسلامية خاصة بعد ازدهار تجارة الملح والتبر فيها، فأصبحت من أهم أسواق قبائل الفولة والولوف ، والسركوله ، والتكرور. وقد عبر السعدى عن ذلك بقوله « انها سوق عظيمة من اسواق المسلمين يلتقى فيها تجار (الملح) من مناجم تغازا ، وتجار الذهب من منــاجم بط وانه بفضل هذه المدينة تتجمع القوافل فى تنبكتو من جميع الجهات المجاورة ، وكانت سوقا كبيرة لتجــارة الرقيق ومــركزا ثقافيا تنافس تنبكتو وازدهرت فيها الدراسات الدينية » ويشير السعدى الى انه كان بها اكثر من اربعة الالاف من المشتغلين بالعلم ، وذكر بعض علمائها كالفقيه

---

(٤٢) Barth, H : Travels and Disocveries in North and Central Africa (london 1858) Vol. IV. p.p. 403 and 408.

(٤٣) السعدى : مرجع سابق ص ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ .

(فودى محمد سافو الونكرى) الذى عاش فى اواخر القرن التاسع الهجرى والقاضى (العباس كب الجندى) وكان فقيها وعالما جليلا والقاضى (محمود بن ابى بكر بغيغ) والد العالمين الفقيه (محمد بغيغ) والفقيه (احمد بغيغ)(٤٤) •

ومن المدن الهامة التى برزت فى السودان الغربى مدينة (كانو) — وقد تبوأت هذه المدينة مركزا ممتازا كمدينة علمية فى غرب أفريقيا خاصة بعد ان رحل اليها بعض علماء (تنبكتو) منذ سنة ١٤٨٥ ، وبعد ان اضمحل شأن تنبكتو منذ القرن السادس عشر • وقد أسست فى كانو مدرسة للعلوم ومدرسة للقضاء الشرعى ذاعت شهرتهما (٤٥) •

اما مدينة (كاشنه) فقد اجتذبت عددا كبيرا من العلماء ، وقد اقام فيها الامام (المغيلى) زمنا طويلا يعلم الناس ، ويرشدهم ويفصل فى الخصومات بينهم ، كما أن بعض المراجع تشير الى أن (جلال الدين السيوطى رحل الى شمال نيجيريا وأقام فى (كاشنه) زمنا يعلم ويرشد الناس ويفقههم فى الدين ثم عاد لمصر ثانية فى عام ٨٧٦هـ (١٤٨١م)(٤٦)•

هذه بعض المدن الاسلامية فى غرب أفريقيا • على أن السعدى يشير الى ظاهرة طريفة جديرة بأن نقف عندها ، فقد أوضح أن كثيرين من العلماء فى هذه البلاد الاسلامية فى غرب أفريقيا كانوا حريصين على انشاء المكتبات الخاصة بهم(٤٧) •

ب — الطابع الثقافى والفنى :

أشرنا الى ان الثقافة العربية بل الثقافة بمعناها الواسع — انتشرت فى غرب أفريقيا فى أثر الاسلام • ورأينا كيف انشئت المدارس وبنيت المساجد لتثقيف الناس وتفقيههم فى شئون دينهم ومن أهم ما تميز به

---

(٤٤) المرجع السابق ص ١١ •

(٤٥) Meek, C. K.: The Northern tribes of Nigeria (London 1925) Vol. 1. P. 66.

(٤٦) Deschamps, H.: Les Religions de L'Afrique Noir (1948) p.127

— والالورى ، آدم عبد الله : الاسلام فى نيجيريا ص ١٠ •

(٤٧) السعدى : مرجع سابق ص ٤٣ — ٤٥ •

التراث الثقافى فى غرب أفريقيا تأثره الى حد كبير بالتـــراث العربى المغربى الأندلسى •

وقد رأينا كيف انتقل علماء من المغرب وغيره من الاقطار العربية الى المدارس التى قامت بهذه البلاد ، كما انتقل الدارسون منها الـــى معاهد العلم المغربية وغيرها • والحقيقة ان الاثر الثقافى للاسلام فى مجتمع غرب أفريقيا كان قويا وعميقا ، ولعل الصورة التى يقدمها بالمر (Palmer) عن علاقات ممالك غرب أفريقيا الثقافية بالبلاد العربية الاخرى توضح الاثر الثقافى للاسلام واللغة العربية فى هذه البلاد • فقد شملت البـــلاد نهضة علمية ، وقامت فيها مراكز ثقافية كانت بمثابة الشعلة التى تضىء الطريق للمستقبل،وبرز علماء وأدباء فى مختلف المجالات وتأثرت الاحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية بكل ذلك ـــ وساعد تشجيع كثير من السلاطين للحركـــة العلمـــية على أن تستـــمر الحركـــة فى تحقيق أهدافها (٤٨) •

ولا شك فى أنه لو استمرت الحركة الثقافية الاسلامية العربية فى طريقها دون أن تصطدم بالاستعمار الاوربى وأهدافه ـــ لحققت لهـــذه البلاد المزيد من التقدم والازدهار،على ان الأمر لا يتعلق بالثقافة العربية وانتشارها فى هذه البلاد ـــ فهناك قضية أهم وأمتع هى نتيجة هـــذا الالتقاء بين حضارتين متابينتين ـــ الحضارة العربية التى جاءت فى ركاب الاسلام ـــ والحضارات الافريقية التى كانت قبل ذلك فى هذه البلاد • وبعض الكتاب يرون أن هذا الالتقاء بين الحضارتين خضع لنفس القواعد والنتائج التى تترتب على هذه الظاهرة ـــ ظاهرة الالتقاء الثقافى أو التماس الثقافى فى كل الظروف • وقد انتهى المؤرخ الانجليزى توينبى بتقنينها فى مبادىء محددة •

ومهما يكن من أمر فان الاسلام دخل غرب أفريقيه حاملا معه ثقافة عربية زاهرة • واذا كانت طبيعة الاسلام أن يبقى من التقاليد والنظم

---

(٤٨) Palmer : Islam in western Sudan and on the west Coast of Africa P. 33

ومظاهر الحياة مالا يتعارض وتقاليد الاسلام ومبادئه ، وما يلائم طبيعة المجتمع وسكانه ــ فان تأثر سكان غرب أفريقيا بالحضارة الاسلامية العربية كان نابعا قبل كل شىء من رغبة داخلية وتطلع لمسايرة العــالم الاسلامى فى حضارته ونهضته(٤٩)• ولعل النقطة الغامضة التى تحتاج لدراسة أعمق هى ــ هل شمل هذا التغيير غالبية المواطنين فى هذه البلاد ــ أم أن الأمر اقتصر على طبقة خاصة من المجتمع استطاعت أن تساير الثقافة الاسلامية العربية بينما بقى عامة الناس بعيدين الى حد ما عن جوهى الحياة الاسلامية ؟ خاصة ان المعروف ان العــامة لم يتخذوا اللغة العربية كلغة للتخاطب فى حياتهم الخاصة ، انما ظلوا لفترة طويلة يستخدمون لغاتهم الأصلية بينما بقيت العربية لغة الثقافة ولغة الصلاة، كمــا ان الحركات الاصلاحية التى قامت والتى ارتسمت أحيانا بالعنف فى هذه البلاد كان الدافع اليها ما لمسه القائمون بهذه الحركات من انتماء الكثيرين للاسلام اسما مع ممارستهم لما اعتادوه من عادات وتقاليد وثنية بعيدة كل البعد عن تعاليم الاسلام •

هذا على ان الفن الاسلامى فى غرب أفريقيا لم يحظ بعد بما يستحقه من دراسة تحليلية ــ لكن نشير هنا الى بعض معالم الفن والمؤثرات التى أثرت فيه • فقصور الأمراء والملوك التى أقيمت فى غرب أفريقيــا فى ظل الاسلام وحضارته تدل فى هندستها ونقوشها ، وشمسيات الزجاج وغير ذلك من معالمها على أثر الفن المغربى ، كما ان المساجد بطريقة بنائها ونقوشها التى استخدم فيها الخط الكوفى ، والخطوط الهندسية والآيات القرآنية بالخط الفارسى ــ تدل على التأثير المغربى الواضح أيضا • هذا وقد شاع فى غرب أفريقيا بناء الاسوار حول المدن تشبها لما شاع فى المغرب• وهذا التشابه يعزى لمساهمة مهندسين مغاربة فى بناء وتشييد هــذه المساجد ، فقد ساهم المهندس ابراهيم الساحلى فى بناء مسجد (جانكوبر) فى تنبكتو ، ومسجد آخر فى (غاؤ) ، كذلك ســاهم فى بناء مسجد فى العاصمة (نيابى) ، وقصر به قاعة كبيرة لمجلس السلطان ، وقــد وصف

---

(٤٩) حسن احمد محمود : مرجع سابق ص ١٠ ، ١١ .

ابن بطوطة هذه القاعه عند زيارته للعاصمة عام ١٣٥٣ م • اما مسجد جنى فهو من تصميم المهندس (ادريس المراكشى) • فدراسة الآثار العمرانية فى جنى ، وتنبكتو تكشف لنا عن أسلوب البناء للذى ســاد فى البلاد والذى يعود فى أصله الى الهندسة المعمارية فى المغرب والتى كما قلنا حملها الى هذه البلاد مهندسون مغاربة أو مهندسون آفارقة درسوا فن العماره وتمرسوا عليه فى فاس أو مراكش • وقد شاع فى (كومبى) الحى المغربى بمنازله المغربية ونوافذه الزجاجية ــ كان حــكام هــذه البلاد وشعوبها ينظرون لما يشيع فى المغرب والبلاد العربية الاخرى التى اتصلوا بها ــ من ألون الحضارة ــ على أنها مثل عليا تحتذى(٥٠) •

جـ ــ اثر الاسلام على النظام الاجتماعى والسياسى والاقتصادى :

ترتب على انتشار الاسلام فى غرب أفريقيا ــ خلق مجتمع جــديد يدين بمبادىء جديدة • حقيقة أن الاسلام ــ كما ذكرنا ــ لم يهدف الى تغيير التقاليد الزنجية المحلية تغييرا جذريا الا ما يتعارض منها مع تعاليمه ومبادئه ــ لكن ترتب على الاحتكاك بين سكان هذه البلاد نوع من الامتزاج بين التقاليد الاسلامية الوافده وبين التقاليد الزنجية المحلية ، وتمت الملاءمه بين هذين العنصرين وظهرت فى المجتمع الافريقى تقاليد اسلامية افريقية •

ولعل ما عرضه (ابن بطوطه) و (القلقشندى) من نماذج للحياة فى هذه البلاد ، وما كتبه المؤرخون الافارقة مثل السعدى ، ومحمود كعت ــ يعطى فكرة عن التقاليد والنظم الاجتماعيــة التى شــاعت فى المجتمع الافريقى فى هذه البلاد •

ولا شك فى أن الثقافة العربية بما أدخلته من مفاهيم جديدة ــ أثرت تلقائيا فى المفاهيم الاجتماعية وفى التقاليد وفى العادات التى ارتبطت بمختلف المناسبات فى غرب أفريقيا ــ فقد امتص الأفريقيون فى غرب أفريقيا الكثير من معتقدات الاسلام دون أن يترتب على ذلك هزة عنيفة فى مجتمعهم ، فالكثير مما نادى به الاسلام ــ كما ذكرنا ــ لم يكن غريبا

---

(٥٠) نعيم ، قداح : مرجع سابق ص ١٥٤ ــ ١٦٠ .

عن مجتمعهم بل كانت له جذور فى المجتمع القبلى • ولذا كما يقول — ترمنجهام — لم يكن سهلا وضع حد فاصل بحيث نستطيع ان نرجع هذا الى الاسلام وذلك الى ما قبله• ولا يعنى هذا أنه لم تحدث تغييراتجذرية فى المجتمع ، ففى كثير من الجهات مثلا كانت هناك مجتمعات أمويـــة (تنسب الى الأم) فتغير هذا كما تغيرت قوانين الوراثة تغيرا جذريا حسب الشريعة الاسلامية • والتغير بالطبع لم يحدث فجأة فقد كان لابد من وقت ليعتاد عليه المجتمع • فاذا أخذنا قرية من قرى الهوسا وحاولنا دراسة حياة الناس فيها وتقاليدهم ومثلهم نجد ان الكثير مما يجـــرى فىاحياة الناس اليومية يرجع لاساس قديم سابق للاسلام،بينما لو ذهبنا الى قرية من قرى (التوكولور) مثلا نجد القانون الاسلامى سائدا على نطاق أوسع • ولعل الاحتفالات العامة فى المناسبات المختلفة تعطى فكرة عن هذه التأثيرات ،كما ان الصورة التى يمارس بها مسلمو غرب أفريقيا الفرائض توضح كيف ان فيها ملاءمة بين تعاليم الاسلام والتقاليـــد الافريقية • لقد سما الاسلام بالكثير من معتقدات الافريقى وعـــدل من سلوكه قبل الاسلام ، مثلا كان شائعا عندهم تقديم الضحايا وغير ذلك من وسائل ارضاء القوى الخفية ، اما فى ظل الاسلام وتعاليمه — فالصدقه ، والزكاة ، والصيام فيها تعنى التضحية ونكران الذات ، ولذا لم يكن صعبا على الافريقى أن يدرك هذه القيم ، وان يعدل من سلوكه حسب تعاليم الدين الجديد(٥١) •

ولعل أهم أثر للاسلام فى مجتمع غرب أفريقيا بصفة عامة هـــو الاحساس بأن الجميع يعبدون الها واحدا • وهذه الوحدة الاجتماعيه تركيها أكثر ممارسة الجميع لفرائض واحدة • ويظهر هنا بوضوح دور الصلاة الجماعيه حيث يؤدى الكل الصلاة معا فيشعر الكل انهم ينتمون لوحدة دينية ، أضف الى ذلك هذا الشعور الواحد وهذه الروابط التى يشعر بها الكل فى شهر الصوم ، وفى الحج حين يتجرد الغنى والفقير من ملذات الحياة الدنيا ، هذا الى ما يفرضه الاسلام من مساواة بين الجميع

---

(٥١) Trimingham : Islam in West Africa p.p. 41-46 and 74-75.

وتحريمه استرقاق المسلم • كل هذه الاسس كان لها أعمق الاثر فى كسر الحواجز القبلية والفروق التى كانت تفتت المجتمع الافريقى فى غرب القارة •

على ان الشريعة الاســـلامية كان لابـــد أن تمس البناء الاسرى فى المجتمع الافريقى فاذا قارنا بين حياة الاسرة المسلمة وحياة الاسرة الوثنية التى تنتمى لنفس المجموعة يبدو لنا بوضوح أثر الاسلام • وبالطبع لايمكن أن نتوقع ان القانون الاسلامى النموذجى هو الذى يمكن أن يسود ـــ لكن لا شك فى أن التغيير الذى حدث كبير ، والصراع بين الشريعة وبين التعاليم ظل فترة طويلا مستمرا وقائما •

ويشير ترمنجهام الى ان (الثنائية) تتضح فى مجتمعات غرب افريقيا أكثر من غيرها ، فهناك نظم اسلامية صرفة جنبا الى جنب مع تقاليد ترجع الى ما قبل الاسلام • وتختلف قوة كل من العاملين فى المـــدن عنها فى المجتمعات الزراعية والقرى بصفة خاصة • ففى هذه الأخـــيرة نلمس المحافظة على التقاليد القديمة والميل للتغيير أقل منه فى المدن • ولعل نظم الوراثة ومكانة المرأة فى المجتمع ، ونظم الزواج والاستجابة للقوانين الوضعية وقوانين الضرائب تعطى فكرة عن مدى سيادة الاسلام وتعاليمه وتأصلها فى المجتمع الافريقى(٥٢) •

ومن الناحية السياسية لا يفصل الاسلام ـــ كما نعلم ـــ بين السلطتين الدينية والسياسية فالخارج عن سلطة الحاكم المسلم ـــ عدو لله • وفى ظل هذه النظرة أعلن الحكام المسلمون الجهاد ضد الخارجين عن سلطانهم•

وقد حاول حكام غرب افريقيا المسلمون تقليد نظم الحكم السائدة فى البلاد الاسلامية الاخرى على قدر ما سمعوا عنها وما فهموها • ولاشك فى أن النظام السياسى الذى وجد مع الاسلام اضعف الى حد كبير النظام القبلى والولاء للسلطات القبلية التى كان لها نفوذ كبير قبل الاسلام(٥٣)•

هذا ومن الناحية الاقتصادية شجع الاسلام العمل والانتاج وبالطبع دخلت مع المسلمين ومع الاحتكاك الجديد محاصيل زراعية جديدة وأوجه

(٥٢) Trimingham, S. : Islam in west Africa p.p. 124

(٥٣) Anderson, J.N. : Islamic law in Africa p. 168.

جديدة للنشاط الاقتصادى • كما نشطت التجارة فى ظل الأمن الـــذى ساد البلاد والأفاق الجديدة والتى فتحت للمعاملات • والاسلام ـــ كما نعلم ـــ يحترم الملكية الفردية ، ويأمر بالصدقة ويعترف بالوراثة ، ويعتبر الاسرة وحدة اقتصاديه لها كيانها الخاص • وكل هذه كانت لها آثارها على اقتصاد غرب أفريقيا •

وقد أشرنا الى أن طريقة (التبادل) التجارى لم تعد صالحه للمجتمع الجديد ـــ فدخلت النقود ، كما دخلت الموازين والمكاييل • ويعطينا البكرى صورة للتطور الاقتصادى الذى طرأ على المجتمع الافريقى فى غـــرب القارة ، وعن دور الموانى المغربية والقبائل المغربية فى ذلك ، والســـلع التى أصبحت تلعب دورا رئيسيا فى هذا النشاط ، ويشير الى أن اللغة العربية باعتبارها لغة مكتوبة ولغة مشتـــركة لعبت دورهـــا فى هـــذا المجـــــــال (٥٤) •

وبالتالى فان الاسلام أدى لمضاعفة النشاط التجارى ، وهذا بدوره ساعد على انتشار الاسلام واللغة العربية • ويعطى لنا البكرى أمثلة لالفاظ عربية استحدثت فى المعاملات التجارية (كالشبر) مثلا ، كما يذكر ان عقود البيع والشراء أصبحت تستهل بالبسملة ، كما أن الأرباح أصبح يراعى فيها النسبة الشرعية(٥٥) •

هذه لمحة سريعة عن أثر الاسلام على المجتمع فى غرب أفريقيـــا • ولعنا لا نستطيع أن ندرك عمق هذا الاثر الا اذا أخذنا صورة واقعية لهذه المجتمعات الافريقية قبل الاسلام ـــ وقارنا بين الصورتين •

ومع أن ما كتب عن وضع هذه المجتمعات قبل الاسلام لا يعـــدو أن يكون بيانات متناثرة عما شاهده أو سمع عنه الرحـــالة الاجانب ، والكثير منها تعوزه الدقة ـــ فان هذا القليل بالمقارنة بالاوضاع الجديدة فى هذا المجتمع يعطى صورة عن عمق هذا الاثر الذى تركه الاسلام فى النسيج الاجتماعى فى غرب أفريقيا •

---

(٥٤) البكرى : مرجع سابق ص ١٧٣ .
(٥٥) نفس المرجع السابق ـــ ونفس الصفحة .

مكتبة البحث

اولا ـ مصادر ومراجع عربية او معربة

١ ـ **آدم ، عبد الله الألورى :**
الاسلام فى نيجيريا (بيروت ١٩٧١) .

٢ ـ **عبد القاهر بن محمد أحمد بن حسن :**
الخبر عن ظهور الفقيه العياشى بهذه البلاد ، وذكر سبب قيامه بوظيفة الجهاد (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط برقم ٩١/د)

٣ ـ **ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتى الطنجى :**
تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (بولاق ١٩٣٢)

٤ ـ **البكرى ، أبو عبيد الله ، عبد الله بن العزيز بن ابى مصعب البكرى :**
المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب (نشر دى سلان ـ الجزائر١٨٥٧)

٥ ـ **بلو ، محمد :**
نفاق الميسور فى أخبار البشر (نشره وتنج ـ لندن ١٩٥١)

٦ ـ **توماس ، أرنولد :**
الدعوة الى الاسلام ـ (ترجمة حسن ابراهيم حسن وعبد المجيد عابدين ـ القاهرة ١٩٤٧) .

٧ ـ **حسن أحمد محمود :**
الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية (القاهرة ١٩٦٣)

٨ ـ **ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد :**
العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٦ (بولاق ١٢٨٤ هـ)

٩ ـ **الدباغ ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الانصارى :**
معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان (٤ أجزاء ـ تونس ١٣٢٠ هـ)

١٠ ـ **السعدى ، بن عبد الله بن عمران :**
تاريخ السودان (طبعة هوداس ١٨٩٨) .

١١ ـ **عبد الرحمن زكى :**
الاسلام والمسلمون فى غرب افريقيا (١٩٦٥)

١٢ ـ **عبد الرحمن زكى :**
المراجع العربية عن غرب افريقية (١٩٦٧) .

١٣ ـ **العياشى ، أبو العباس أحمد بن أحمد العياشى :**
كشف الحجاب على من تلقى مع التيجانى من الاصحاب (فاس ١٣٢٥هـ)

١٤ ـ **العياشى :**
جواهر المعانى ، وبلوغ الامانى فى فيض الشيخ التيجانى ـ الكناش (القاهرة ١٣٤٥ هـ) .

١٥ ـ العمرى : (شهاب الدين أحمد بن فضل الله)
مسالك الابصار فى ممالك الأمصار .
١٦ ـ قداح ، نعيم :
أفريقيا الغربية فى ظل الاسلام (دمشق ١٩٦٠)
١٧ـ كعت ، أبو الثناء محمود بن عمر كاتى الصنهاجى التمبكى :
تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر النـــاس (نشر هوداس ، وديلافوس ـ باريس ١٩١٣) .
١٨ ـ المراكشى ، عبد الواحد :
المعجب فى تلخيص اخبار المغرب (القاهرة ١٣٦٨هـ ـــ ١٩٤٩) .
١٩ ـــ المقرى ، ابو العباس أحمد بن محمد التلمسانى :
نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيـــرها لســـان الدين الخطيب (بولاق ١٩٦٢) .

ثانيا ـ المراجع الاجنبـــية

1. Anderson, J. N. : Islamic Law in Africa (London 1966).
2. Barth, H. : Traveis and Discoveries in North and Central Africa (1849-1855). Vol. IV (London 1859).
3. Carpenter, G. W. : The Role of Christianity and Islam in Contemporary Africa.
4. Deschamps, H. : Les Religions de l'Afrique Noir (1948).
5. Diop, Anta : L'Afrique Noire Pré - Coloniale (Paris 1952).
6. Dubois, F. L. : Islam Noir (Paris 1899).
7. Dubois, F. L. : Tomboctou la Mysterieuse (Paris 1899).
8. Fage, U. D. : An Introduction to the History of west Africa (Cambridge 1955).
9. Meek, C. K. : The Northern Tribes of Nigeria 2 Vols. (London 1955).
10. Niam, D. Jebril : L'Emperè de Mali (Conakry 1941).
11. Niam, D. Jebril : Ghana (Conakry 1959).
12. Niam and Conale : Histoire de l'Afrique Occidentale (Conakry 1960).
13. Palmer, H. R. : Islam in Western Sudan and on the west Coast of Africa (1926).
14. Pory, John (Publisher) : The History and Desctiption of Africa ; written by al Hassan Ibn Mohammed el Wzan al Fase (London 1896).
15. Trimingham, J. Spencer : Islam in West Africa (Oxford 1864).
16. Trimingham, J. Spencer : Christian Church and Islam in West African (London 1955).